الناحية الدينية

ليس فى وسع الباحثين أن يجدوا دليلاً قاطعاً على مبدأ التَـدَيُّن لدى العرب ولا أن يعرفوا عن نشأة الديانات التى شاعت بينهم ، ولا عن أطوارها شيئاً يطمئن الباحث الحديث إلى سلامته من الريب ، والحدس ، والظن ، والتخمين ومما لا ريب فيه أن عبادة " الكواكب " كانت من أقدم العقائد العربية ، واشتهر عرب الجنوب من اليمنيين بعبادة " الشمس " كما ورد فى قوله سبحانه فى الحديث عن ملكة سبأ " بلقيس " ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة النمل:٢٤] وكانت عبادة القمر معروفة عند " عرب الشمال " من البدو الذين كانوا يعتمدون على الرّحلة بالليل ويهتدون بضوء القمر فى تلك المفاوز الموحشة وقد بقى فى الآداب والمعتقدات العربية ما يدل على مكانة " القمر " من بين معبوداتهم فى الجاهلية مثل تقليبه على " الشمس " وفى تثنية القمرين ، والاعتماد عليه فى الصيام والعدة ، والحج وعدد السنين والحساب .

وقد عبدوا "عُطارد" و"المشترى" **يقول تعالى** : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [سورة النجم:الآية١] .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾ [سورة الطارق: الآيات١ :٤] .

يقول المفسرون : " إن المراد بالنجم هو " عُطارد " ويذكر لنا " أبو المنذر بن السّائب الكلبىّ " وهو من مؤرخى العرب فى القرن الثانى الهجرى فى " كتاب الأصنام " إن أول عهد العرب بعبادة الأصنام كان بعد إقامة " خزاعة " بمكة وسيادتها على الحرم وأن " عمرو بن لحى " سيد " خزاعة " كان قد ارتحل إلى " البلقاء " من بلاد الشام ، ووجد أهلها يسجدون لهذه الأصنام ، فسألهم عنها " هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية لننتصر بها فدفعوا إليه " هُبل " وهو

أعظم أصنامهم ومن أشهر آلهتهم " اللات والعزى ومناة" وعداً أصنام وآلهة كثيرة تسموا بأسمائها ، وأضافوا أنفسهم إليها مثل " تيم اللات، وعبد يغوث ، وامرئ القيس ، وعبد شمس ، وعبد مناة " وقد نفى القرآن الكريم عليهم هذه العبادات فى كثرة كاثرة من الآيات القرآنية **منها قوله سبحانه :** ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة النجم: الآيات ١٩: ٢٠] **وقوله سبحانه:** ﴿ ...لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ... ﴾ [سورة فُصِّلَت:من الآية٣٧] وبعض الطوائف من العرب كانوا يعبدون "الملائكة والجن " **يقول عز وجل :** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة سبأ:الآيات٤٠ :٤١].

ظهور الزندقة :

وقد روى لأن قوماً من قريش كانوا يعتنقون الزّندقة وقد قبسوها من "الحيرة " وهذه الزندقة تقول بإلَهّين هما " إله النور" وهو أصل كل خير و" إله الظُلْمَة " وهو أصل كلّ شرّ[1] . وهناك قوم من العرب أنكروا الأديان كلها ، وأنكروا الخالق ، والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المجى ، والدهر المعنى وهى مقولة الملاحدة والدهريون الذين يؤمنون بأن الدهر هو مهلكهم " ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع"[2] ويقول القرآن على ألسنتهم : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٣٦-٣٧]

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ... ﴾ [سورة الجاثية:من الآية٢٤] .

اليهودية والنصرانية :

وقد انتشرت اليهودية ، والنصرانية فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وليس فى المصادر التاريخية ولا الأدبية ما يفاد منه تحديد الوقت الذى ظهرت فيه

1 - راجع المعارف لابن قتيبة الدينورى .
2 - بلوغ الأدب للألوس .

هذه الديانات فى بلاد العرب . بيد أن النصرانية التى كانت منتشرة فى بلاد "اليمن " وفى قبائل " تغلب ، وقضاعة ، وغسان " ويقول علماء الأدب العربى " ويظن أنها دخلت إلى بلاد العرب فى القرن الرابع الميلادى ، وذلك بنقل القساوسة، والبطارقة ، وإن كان العرب لم يعتنقوا المسيحية ، ولم يدينوا بها ، وقد تسرب إلى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت فرقتان كبيرتان من النصارى : وهما "النساطرة " وكانوا فى الحيرة و" اليعاقبة " فى " غسان " ، " الشام و" وقد اختلف المؤرخون فى أصل اليهود فبعض المؤرخين يقولون إنهم " عَرب " اعتنقوا اليهودية وبعضهم يقول " إنهم يهود هاجروا إلى بلاد العرب " **ويقول بعض المستشرقين** :

"إنّ اليهودية انتشرت قبل الإسلام بقرون كثيرة ، وأسست هذه مستعمرات يهودية ومن أشهرها " يثرب " وهى المدينة المنورة صلى الله على ساكنها سيدنا " محمد " وتسميتها جاءت بعد الاسم الذى كانت تسمى به من قبل ربعو " يثرب" وكان يهود يثرب ثلاث قبائل وهى " بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع " كما أن أهم موطن للنصرانية فى جزيرة العرب كان " نجران " وهى الآن من أعمال المملكة العربية السعودية ، بيد أنها فى الحقيقة " يمنية الأصل " وكذلك " جيزان " فهما مدينتان يمنيتان ونجران مدينة تمتاز بالخصوبة ، وهى قريبة من الطريق التجارى الذى يمتد إلى " الحيرة " ومباهلة النبى ﷺ لوفد " نجران " شهيرة .

يقول ياقوت الحموى: " فى معجم البلدان " " ووفد على النبى ﷺ وفد " نجران " وفيهم السيد واسمه " وهب " والعاقب " واسمه " عبد المسيح " والأسقف " وهو " أبو حارثة " وأراد النبى عليه الصلاةو السلام مباهلتهم فامتنعوا ، وصالحوا النبى ﷺ فكتب لهم كتاباً، فلما وَلِىَ " أبو بكر " رضي الله عنه أنفذ ذلك لهم فلما ولِىَ سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه أخلاهم، واشترى منهم أموالهم .

فكرة التوحيد

ويرى الأستاذ " أحمد أمين " تابعاً فى ذلك الأمر المستشرقين أن ظهور "التوحيد" فى الجزيرة العربية لا يَبْدوَ أن يكون أثراً من آثار المسيحية ، أو اليهودية ويضيف إلى ذلك أن الأوطان السامية القديمة كانت المهد الأول للديانات الثلاث الكبرى التى ظهرت فى التاريخ وهى النصرانية ، واليهودية ، والإسلام " .

ولا ندرى أَهُم فى جهالةٍ جهلاء ، وضلالةٍ عمياءْ ، أم أنهم يتجاهلون أن الله سبحانه وتعالى قد بعث إلى العرب أربعة من الرسل قبل ظهور هذه الديانات وهم " سيدنا " هود " عليه السلام وكان فى قوم عاد الذين كَانوا يقيمون فى الأحقاف وثانيهم سيدنا " صالح " عليه السلام، وكان فى " ثمود " وكانت منازلهم بالحجر وكذلك سيدنا " شعيب "عليه السلام وكان فى أهل " مدين " وإسماعيل " فى العرب المستعربة .

وقد حكى " القرآن الكريم " شيئاً عن مدينتهم وتاريخهم . وليس من المعقول أن تكون الجزيرة قد تجردت من آثار وراثية لرسالات هذه الرسل التى كانت قائمةً على أساس الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، وأنه ليس للخلق ولا للأرض والسماء إله غيره سبحانه وتعالى جلّ فى علاه .

ظهور الحنفاء :

إنه من المؤكد أن هناك طبقة من الشعراء والكهان والأشراف قبل ظهور الإسلام قد فطنت وهديت بفطرتها إلى أن لهذا الكون إلهاً خلقه ، كما فطنت إلى أن الجمهرة العربية فى غواية منكرة ، فدعت إلى ضرورة الخروج بالعقلية العربية عن هذا الدّرك من الانحطاط ، وذلك بنبذ عبادة الأصنام ، والتخلص من عادات الجاهلية مثل" وأد البنات ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر " وكان هؤلاء الحنفاء أو المتحنفين يدينون بالبعث ، ويؤمنون بالله وحده ، ويدعون إلى الحنيفية دين أبيهم " إبراهيم " عليه السلام وكان هؤلاء يسمون " التائبين أو الحنفاء " ومنهم على سبيل المثال لا الحصر " ورقة بن نوفل " و" قس بن ساعدة الإيادى " و" أمية

بن أبى الصلت " وقد سمع رسول الله ﷺ " قس بن ساعده الإيادى فى سوق " عكاظ " يخطب على جمل " اورق " يبشرهم برسول الله ﷺ وديـن جديد قد أظلهم أوانه ، وأدركهم إبانه وقال فيه رسول الله ﷺ : " يرحم الله قُسّاً إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده " .

كما نرى جماعة من الوثنيين قد سئموا وثنيتهم ، وأحسوا قصورها من حاجتهم الروحية ، فمالوا إلى الشك ، والإباحة ورأوا فى الحياة مهزلة غير مفهومة من الواجب أن تقضى ف لهو ، ونعيم ، واستهتار ، **نجد ذلك فى شعر الشاعر "طرفة بن العبد البكرى "** :-

ألا بهـذا الزاجـرى أحـصر الـوغى
وأن أشهد اللـذات هـل أنـت مخلـدى

فـإن كنـت لا تـستطيع دفـع منيتـى
فدعنى أبادرهـا بمـا ملكـت يـدى

يقول :

متـى تـأتنى أصـحبك كأسـاً رويـة
وإن كنـت عنهـا داعنـى فعـن وازدد

كـريم يـروى نفـسه فـى حيـاته
ستعـلم إن متنـا غـداً أينـا الـصدى

فهذا شاعر قد استيأس من الحياة ، وشك فى الآخرة ووجد الخير فى اطراح الجبن ، والتعلق باللَّهو ، وما يتصل به وإذا تركنا الشاعر " طرفة بن العبد البكرى " الذى يئس تمام اليأس نجد وثنياً آخر هو الشاعر " زهير بن أبى سلمى المُزنى " يحس بقصور الديانات التى يراها أمامه فى الجزيرة العربية ، بيد أنه لا يطمئن إلى أن الحياة عبث ولهو ، أو أن العالم خُلق سُدى ، وشرع يفكر فى نهاية هذه الحياة ، متشبثاً بفكرة الآخرة **فتراه يقول** :

فـلا تكـتمن الله مـا فـى نفوسـكم ... لِيخْفَى ومهمـا يكـتم الله يَعْلَـم
يؤخر فيوضـع فـى كتـاب فيـدخر ... ليوم الحـساب أو يعجـل فينـتقم

فهو إذاً مطمئن إلى شيء بعد الدنيا من " حساب وجزاء " ولكن هذه الفكرة لا تقوم عنده على بُرْهان عَقليّ ، أو بحث قوى ، أو رأى دينى . لذلك نجده بعد ذلك يعود إلى اضطرابه ، فيورد لأفكاره القديمة .

فيقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُـصبْ تمته ومن تخطىء يعمـر فيهـرَمِ

فالموت لديه مصادفة ، ومعنى هذا اضطراب العرب أو مفكريهم أمام هذه الديانات التى تعرض نفسها عليهم ، ثم حيرتهم فى اختيار أحدها ، وفى أيهما أشد ملاءمة لهذه الحال التى وصلوا إليها من أطوار حياتهم البدوية ، فهم فى حاجة إلى الهداية ، والإرشاد أو إلى مثل دينى أعلى لإشباع هذه الشهوة الروحية الثائرة وفى هذا الوقت تنتظم القبائل العربية أسباب متظاهرة لنهضة اجتماعية ، وعقلية ظهرت طلائعها بالميل الشديد للوحدة العامة ، والاشتراك فى النفور من الحياة بأعباء الفوضى ، والانقسام .

الإرهاصات تسبق النبوة

وكان لأصحاب هذا المذهب الذى أومأنا إليه آنفاً وهم " طبقة الحنفاء " أو " المتحنفين " من الشعراء كثير الفضل ، وعظيم الأثر فى هذا التطّور السريع الذى أفضى بالأمة العربية إلى عدم الرضا بتلك الأديان الشائعة خاصة ، خاصة " الوثنية والرغبة الأكيدة فى النقلة إلى عهد من السلام ، والعرفان ينبعث الناس من خلاله فى معايشهم ، ووجوه منافعهم ، وهم فى حراسة الشرائع ، وحماية الأوضاع المهّذبة فكان ذلك إرْهَاصاً ، وتمهيداً صالحاً لظهور النبى المنتظر ألا وهو سيدنا محمد ﷺ